آلية النقد ضرورة فكرية وحضارية

The mechanism of criticism is an intellectual and cultural necessity

قديدير بوجمعة

المركز الجامعي صالحي أحمد، النعامة (الجزائر)، kedidir.anas@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/03/25 تاريخ القبول: 2023/08/01 تاريخ النشر: 2024/01/31

ملخص:

مادام عالمنا العربي والإسلامي غارقا في ظلمات التخلف، فلا حل أمامه إلا ثورات كبرى تُغيّر بشكل جذري من نمط تفكيره وطبيعة سلوكه، لأنّ التّغيير الحقيقي ليس مجرد تعديل في المظاهر الشكلية بل تغيير في الذّات باعتبارها مركزا ومقياس كل شيء، والتّغيير الفردي أساس كل تحول اجتماعي رشيد.

هدفنا من هذا البحث هو الكشف عن الآليات المثلى للتّغيير السليم والصحيح، وانتهينا من خلال هذه الورقة البحثية إلى أنّ التّغيير والإصلاح الحقيقي يبدأ من خلال إعمال آلية النّقد الذّاتي ومساءلة الذات باعتبارها ضرورة فكرية وحضارية، تكشف إخفاقات الذّات وإنجازاتها ومؤشرا على الوعي الحضاري الحقيقي، وقد اعتمدنا على المنهج التحليلي المقارن لأنه يتناسب مع بحثنا.

كلمات مفتاحية: التخلف؛ الذات؛ الفكر؛ النقد؛ التحرر.

Abstract:

As long as our Islamic and Arabic world is struggling in the abyss of backwardness and underdevelopment, there is no better solution other than major revolutions that bring radical change to thought and behaviour. True change is not mere modifications of appearances, but rather a change in identity as the centre and measure of everything, and individual change is the basis of every rational social transformation.

Our goal in this research is to reveal the optimal mechanisms for sound change, and we concluded that real change begins through the implementation of the mechanism of self-criticism as an intellectual and civilizational necessity, revealing the failures of the self and its achievements and an indication of true civilized awareness. Moreover, we have relied on the comparative analytical approach because it is appropriate with the nature of our research.

***Keywords**: Underdevelopment, Identity, thought, criticism, liberation.*

1. مقدمة :

مثلما يختلف الأفراد في الفكر والسلوك، وفي الاستعدادات والتحديات، تختلف الأمم في الإمكانيات والإنجازات. فأمم تَرقى وتَرتَقي حتّى تبلغ الذّروة والأوج وتنعم بالحضارة وثمارها وتستظل تحت ظلالها وتعمل على المحافظة عليها، وأخرى تتهاوى في قاع التّخلف وتتخبط في ظلمات حالكة رغم أنّها تعيش في عز القرن الواحد والعشرين، وتعتقد أنّها في خير وعافية.

وعليه فالأمم الإنسانية ليست عالمِا واحدًا بل عوالم متفاضله، أعلاها أمم متحضرة واعية لذاتها ولغيرها، بصيرة بأحوالها تجيد التّدبر والتّدبير، وتكرّس روح النّقد والمساءلة، وتعرف إنجازاتها وإخفاقاتها، وتحتضن الاختلاف والتّعددية والانفتاح على الآخر، تستشرف المستقبل، تقوم على الابداع المستمر، وتفرض وجودها من خلال إنجازاتها لسان حالها يقول: "أنا أفكر إذن أنا موجود."

وأدناها أمم متخلفة جاهلة وللعالم من حولها، نمطية متجمّدة في قوالب متصلبة، لا تعرف إلا التّقليد الأعمى، منفعلة عاطفية هائجة مائجة، لا تعرف النّقد أو محاسبة الذّات، ولا تميز بين إنجازاتها وإخفاقاتها، وتعتبر المساءلة الذاتيّة خيانة ورذيلة، ترفض الاختلاف وتمارس الإقصاء، عاجزة عن الإبداع، كسولة ذهنيا معوقة عقليًا، شهوانيّة مستهلكة زبونة، ولا تتجاوز ذاتها فهي أشبه بالمياه الراكدة التي لا تعيش فيها إلا الحشرات، وبؤرة للأوبئة والأمراض الخبيثة، تجذب الأغبياء وتجّار الدين والسياسيين الفاسدين تتخبط في غياهب الجهل والفساد لسان حالها يقول: "أنا حالم إذن أنا هائم". ثم فهي أمّة هالكة وإن ظنّت أنّها ناجية، ومتخلفة وإن امتلكت أحدث التكنولوجيات، وفقيرة وإن كانت تملك كل الخيرات .

ونحن بطبيعة الحال خير مثال لهذا العالم المتخلف، رغم كل إمكانيات التي نملكها. فهل بإمكاننا الخروج من ظلام التّدهور إلى أنوار التطور؟ هل نملك القدرة على التّدبر والتّدبير حتى نخرج من دائرة القصور إلى عالم النور؟ هل نملك الإرادة الصادقة والقابلية للتحضر؟ هل لنا القدرة على مساءلة الذات وتشريحها ومعرفة إنجازاتها وإخفاقاتها؟ هل نحسن فن النّقد الذاتي باعتباره أولى خطوات التحرر؟

لعل أبرز فرضيات هذا المقال هو أنّه لا يمكننا الخروج من ظلمات التّخلف إلى أنوار الحداثة إلّا من خلال المعرفة العلمية بالذّات أولا، معرفة تكشف عن حقيقتها ومكانتها في المجتمع الدولي، ومعرفة علمية أيضا بالآخر الذي يتجاوزها بمراحل، ثم إعمال آلية النقد العلمي للكشف عن إخفاقاتها وإنجازاتها والوقوف على أسباب ذلك. وهدفنا طبعا هو تسليط الضوء على مشكلة تخلفنا التي أرّقتنا ولازالت تُؤرّقنا لأنّها تزداد حدة وشدة ومحاولة تقديم حلول لها. ولمعالجة ذلك اعتمدنا على المنهج المقارن والمنهج التحليلي النقدي لأنّه يناسب طبيعة بحثنا.

لم تكن هذه المحاولة الأولى من نوعها، فقد سبقتها محاولات كثيرة منذ القرن التاسع عشر، ففي عام 1893 تساءل الشيخ عبد الله النديم في دراسة معمقة بعنوان "بِمَ تقدم الأوربيون وتأخَرنا والخلق واحد؟!". وفى القرن العشرين كرّر المفكر الإسلامي الأمير شكيب أرسلان نفس التساؤل قائلا: "لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم؟ وقد أحدثت البعثات التعليمية العربية الإسلامية خاصة المصرية منها، بالعالم الغربي صدمة في الوعي الإسلامي الحديث، صدمة رفعت سؤال التقدم والتفكير فيه إلى الواجهة.

وأعاد المفكرون المعاصرون طرْح نفس المشكل بتواضعٍ وواقعية مُتسائلين ليس عن سر تخلُّف العرب وتقدُم الغرب، بل عن سر تخلُّف العرب وتقدُم اليابان والصين وكوريا والهند والأمم التي كنّا معها في نفس المستوى الحضاري ومنهم الجابرى وأركون وطرابيشى وبلقزيز وغليون وهشام شرابى وغسان سلامة... إلخ. هل العلة في بنية العقل العربي، أم في الثقافة البدوية والموروث الثقافي، أم في الفهْم السيئ للإسلام، هل هو الاستبداد السياسي، وغياب الديمقراطية، والتبعية للغرب... إلخ أم هناك عوامل أخرى تعيق تطورنا وانطلاقتنا؟ والجديد في محاولتنا هو أنّ كل نهضة حضارية لا تقوم إلّا على أساس ثورة نقدية شاملة وجدرية تغير الفكر والسلوك.

2. ما موقعنا في المجتمع الدولي المعاصر؟

هذه المشكلة –وهي موضوع فلسفي بامتياز– شغلت كل المفكرين العرب يقول مالك بن نبي: "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لأي شعب أن يفهم أو أن يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانيّة، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"(ابن نبي 1979، صفحة44).

منذ القرن التاسع عشر ورواد الإصلاح الإسلامي والاتجاهات العلمانية والقومية يتساءلون لماذا تعثرنا وتقدم غيرنا؟ يقول الجابري: "منذ بدء اليقظة العربية الحديثة، مع أوائل القرن التاسع عشر، والفكر العربي بمختلف اتجاهاته وتياراته يعيش مشكلة "النهضة" أو على الأصح يبحث عن مشروع للنهضة، بل يجب القول: إن مشكلة "النهضة" هي التي كانت ولا تزال وراء انبعاث الفكر العربي وانقسامه إلى اتجاهات وتياراته" (الجابري 1994، صفحة21).

كل محاولة إصلاحية لا تقوم على معرفة علمية عميقة بالذات، ماضيها وحاضرها، مآلها الفشل لا محال. لهذا علينا "التعرف على الأمراض التي نعانيها، ونكتشف حقيقة المرض الذي أصابنا قبل أن نبادر الى وصفات العلاج التي لا فائدة منها والتي تكاد تكون مخدرات تزيد المرض مرضا. إنّ الإنسان القاصر عن فهم أمراض مجتمعه غير جدير بأن يكون طبيبا يصف الأدوية وكم ابتلينا في تاريخنا بمن يتصدر للعلاج، وهو أبعد الناس عن الصحة". (ابن خلدون 2004، صفحة13).

إنّ الفكر هو أساس تطور المجتمعات، وبه وحده نميز بين العوالم المتحضرة والمتخلفة، فهو "الذي يميز فردا عن آخر، وهو أيضا الذي يميز شعبا عن آخر وما نقوله أحيانا عن تقدم شعب وتخلف آخر، لا يعني سوى تقدم الفكر هنا وتخلفه هناك، فلو أنّك قلت أنّ القارة الأوروبيّة قارة متقدمة في حين القارة الإفريقية قارة متخلفة فلا يمكن أن يكون معيار التقدم والتخلف هو عدد السكان، ولا هو مقدار الموارد الاقتصادية كلا ولا يمكن أن تكون العوامل الجغرافية أو مساحة الأرض هو فارق الزمان فهما معا يعيشان في قرن واحد. لا شك أن المعيار المقصود هنا وهو طريقة التفكير". (إمام 1990، صفحة 08)

فالأمم القوية تعبير عن فكر مستنير صحيح والأمم المتخلفة تعبير عن فكر فاسد خاطئ، إنّ" المجتمع أو الشعب أو الدولة –تماما كالفرد–يقاس تقدمه وتخلفه بالفكرة، أو بما لديه من مبدأ فلسفي، وتقدم الأمة يعني سمو فكرها، أما تدهور الدولة وانهيار المجتمع فهو دليل على فساد الفكر الذي يقوم عليه". (إمام 1990، صفحة 12). فالأمّة تسيّرها فلسفة ما، وهي معيار تقدمها أو اخلفها و "كل مجتمع بالغا ما بلغ تقدمه، أو تخلفه يقوم على فلسفة بعينها تتجلى مظاهرها في مناشط حياته ويتجلى معها مدى تقدم المجتمع أو تخلفه". (إمام 1990، صفحة 14).

العوالم المتحضرة تجيد التّفكير والتّدبير يتجلى ذلك في علومها وفنونها وفلسفاتها وفي مشاريعها، وتتجاوز ذاتها باستمرار، أما العوالم المتخلفة فهي كالقُصّر لا تحسن التّدبر والتّدبير، بل تحلم وتتخيل وتكرر، وتعتقد أنها في أحسن الأحوال، إنّ "العقل العربي في الحقيقة لا ينتج اليوم شيئا بل...يستهلكها" (الجابري 1994، صفحة 54). والنّتيجة أنّ العوالم المتقدمة تزداد تطورا ورقيا والعوالم المتخلفة تزداد تخلفا وتدهورا .

تخلّف المسلمون لما عطّلوا عقولهم، وتخلفهم دليل على فساد تفكيرهم، لهذا عملت جمعية العلماء المسلمين الجزائرية –إبان الستدمار الغاشم–على تصحيح المفاهيم الدينيّة والموازين العقلية حتى تعد مواطنا مستنيرا، وشعبا واعيا، وأكدت أنّ الإسلام "يمجّد العقل ويدعو التفكير".

ازدادت حدة تخلفنا، وتوالت إخفاقاتنا وانتكاساتنا وساهم "المفكرون للأسف في استدامة حالة التخلف والانحسار والابتعاد عن أي تحول حضاري يتناسب وثقافة العصر، والبقاء تحت وطأة شعور التخلف والعجز ومشاعر الخوف والدونية والانصراف عن المنافسة والمواكبة والفضول المعرفي، فنكون بذلك مجرد زبائن مستهلكين لمنتجات العالم الغربي فكرا وحضارة" (مرابطين 2016، صفحة 19).

إذا كان يوم الأمّة مثل أمسها أو أسوأ، فهي أمة هالكة، وعليها مراجعة ذاتها. ونحن بالذّات نعيش هذه الحالة، فقد كنا في عقود سابقة أفضل بكثير مما نحن عليه اليوم، والكثير من الأمم تقدمت تقدما مذهلا وتجاوزتنا بعد أن كنّا في سبعينات القرن الماضي معها في نفس المستوى أو أفضل منها . لقد نجحت شعوب

من دول العالَم الثالث –كانت مثلنا تخضع للاستعمار الغربي كالدول الإفريقية والهند وغيرها– من التحرر من دائرة التخلف والجهل ودخول عالَم الحداثة والتطور والديمقراطية، بينما الدول العربية، وباستثناء قلة منها، ما زالت تراوح مكانها، بل وتتراجع إلى الخلف، وحالتها لا تعبر عن "انهيار الدولة وتجزئة الوطن فحسب، بل إنها تنطوي أيضا على أقصى صور لتردي العقول وفساد الضمائر". (الجابري 1994، صفحة 29).

كان العرب يصفون الجاهل والمتخلف بـ"الهندى" لأنّ الهند كانت بلاد الجهل والتخلُف، واليوم أصبحت الهند من الدول العظمى ويُضرب بتقدمها الاقتصادي المثل ويصل معدل النمو فيها إلى نسبة 7.2 %، بينما يصل نمو الإنتاج الصناعي إلى 8.3%، وهي تحتل الترتيب الخامس عالَميا وبالتالي تجاوزت بريطانيا الدولة التي كانت تستعمرها، ويتوقَع المختصون أن تحتل الترتيب الثالث بعد سنوات قليلة، وما ساعد الهند على نهضتها اهتمامها بتكنولوجيا المعلومات وما يرتبط بها من صناعات. والهند أكبر الديمقراطيات في العالَم، رغم كل التحديات المعيقة للديمقراطية (ثقافية أم اجتماعية أم دينية) نجحت في بناء نظامٍ ديمقراطي علماني، على الرغم من أن تعداد سكانها يفوق المليار وربع المليار نسمة يعيش مُعظمهم في الريف ويتكلمون مئات اللغات ودستور الهند يعترف باثنَين وعشرين لغة كلها رسمية...الخ.

أما العرب، الذين تحرروا من الاستعمار في المرحلة نفسها من استقلال الهند ـ (استقلت الهند في العام 1947) ويتكلمون لغة واحدة ولهم ثقافة واحدة وتاريخ مشترك ومنَّت عليهم الطبيعة بثروات طبيعية وبشرية كثيرة ويتربعون على موقع جغرافي متميز...الخ، يقول الغزالي: "خامات الشرق الوفيرة، ومنابعه البكر، وتجارته الواسعة، نكبتها الغفوة العقلية والفوضى الاجتماعية فشّلت أيدي أهلها من الانتفاع بها، وحولت مجراها الغني ليصب بعيدا عنها، وعسكرت جيوش الاحتلال لتمنع بوادر الصحو المادي والأدبي من أن تمهّد للمواطنين طريق العودة إلى حكم بلادهم ومنع اللّصوصية العالمية من ابتزاز مواردها" (الغزالي 2005، صفحة 25) فلا يزالون يراوحون مكانهم، ويستوردون من الهند ما تعجز "العقلية" العربية عن إنتاجه.

وإذا أردنا ان نلج المسار الديمقراطي جاءت ديمقراطيتنا مشوَهة عرجاء وموجَهة من الخارج وسرعان ما تنقلب إلى حُكمٍ استبدادي، ويحل الجنون بدل العقل ويزداد الحال سوء وتدهورا، وفي الأخير يستسلمون لحالهم التعيس بعدما فقدوا القدرة على التّغيير، ويعتبرون ذلك إيمانا بالقضاء والقدر.

استبشرنا خيرا بهبات الربيع العربي، كثورات ضد أنظمة استبدادية ترفض الديمقراطية وتنتهك حقوق المواطنين...إلخ، لكنّها سرعان ما آلت إلى فوضى وحرب أهلية وطائفية تقوض مرتكزات الدولة الوطنية وتعيد إنتاج الفساد والطغيان. و"تقدمت الحركة الإسلامية في عصرنا ولازال الفكر غير قادر على تشخيص

تحليل مشخص لها...هل هي صحوة ام وعي متطرف؟ هل هي عودة للإسلام ام تقدم نحوه؟ هل هي إيديولوجية سياسية أم دعوة دينية؟". (بوعرفة 2016، صفحة 27،28).

3. حقيقة الذات العربية:

الإنسان في الغرب جاد في عمله متفان في أداء واجباته، محترمًا لقانون مجتمعه، ملتزما لأوقاته، متفائلا عارفا بالحياة وقيمتها، مكرسا لثقافة مجتمعه، مستنيرا ومهاديا بمفكريه لا يتوقف عن القراءة والموسيقى والرياضة، يساهم بإخلاص في بناء أمته...أما الانسان العربي–الذي يستمع كثيرا للمواعظ في المنابر والفضائيات– فهو الكسلان التعبان في عمله، المقصر والخائن لواجباته، المتمرد على قوانين مجتمعه مضيّعا لأوقاته، لا يعرف معنى للوقت ولا للحياة أو للإنسانية، منفصل عن ثقافته لا يهتدي بمعارف علمائه، يطالب بحقوقه أكثر مما يقوم بواجباته. و"كانت بداية النّهاية إذن حينما بدأ الأجداد يميلون إلى التّرديد ولا يقبلون التّجديد، حينما بدأوا ينزعون إلى الشرح والتلخيص دون الإبداع والتفرد، حينما بدأوا يحلون مشكلات عصرهم من خلال النظر في مؤلفات السابقين". (النشار 2015، صفحة 39).

إنّ الذّات الحضارية ذات مستنيرة تمارس التّدبر والتّدبير وتستجيب لتحديات الواقع المتجدّد والمتغير، وتتجاوز ذاتها باستمرار، لكنّ الذات العربية الكسولة ذهنيا واليائسة نفسيا المتعبة بدنيًا المستسلمة لقدرها التعيس، فهي عاجزة عن التّفكير والتّدبير، وعاجزة عن الاستجابة لتحديات عصرها. والنّتيجة تخلف متعدد الأشكال والألوان يقول مالك بن نبي: "فليس للانحراف طرق مرسومة نظريا، ولكن له دروبا مظلمة يتعثر فيها السائر في كل خطوة". (ابن نبي 1979، صفحة 52).

العوالم المتحضرة تسيرها النّخبة المفكرة العارفة المستنيرة، وأكد أفلاطون أنّه يجب أن" تتولى المعرفة والعلم والفلسفة الحكم في البلاد. إنّ الشعب بغير هدى المعرفة، جمهور بغير نظام وهو بذلك كالرغبات بغير نظام أو القطيع بغير راع. إنّ الشعب يحتاج إلى هدى الفلاسفة، كما تحتاج الرغبات إلى ضوء المعرفة، والخراب يحل بالبلد عندما يصبح التاجر الذي يملأ قلبه حب الثروة حاكمًا، أو يستخدم القائد العسكري جيشه ويقيم حكومة عسكرية دكتاتورية، إنّ أفضل مكان لرجال الإنتاج هو الميدان الاقتصادي. والمحارب أو العسكري يبرز ويلمع في الميدان والمعركة...ولا يصلح لهداية الشعب سوى ملك فيلسوف سوف تنجو المدن والجنس البشري من الشرور والفساد والمرض إلا إذا أصبح الفلاسفة ملوكا أو الملوك فلاسفة". (ديورانت دت، صفحة 32، 33). وهذا جوهر فلسفة أفلاطون. لكن واقعنا العربي انتصر فيه السياسي على المفكر، والعامّة على الخاصّة، وأصبح السياسي فوق الفكر والقانون... فزادت إخفاقاتنا لأنّ الجهل معول يهدم

بيوت العز والكرم وهو "في حقيقته وثنية، لأنه لا يغرس أفكارا بل ينصب أصناما ... ومن سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم" (ابن نبي 1979، صفحة 56).

أصبح الشارع الهائج المائج يحرك السلطة ويحدد سياستها، و"كلما أُقحم الجمهور في مسائل الفكر والسياسة كلما كانت البلاد تعيش أسوأ مراحلها التاريخية". (بوعرفة 2016، صفحة 30) لقد مات المثقف العربي، وصار المثقف بدون مواقف. وصرنا رعية فاسدة لا تهتدي بأنوار العقل والحكمة، بل بظلمات الحماقة والجهالة، و"الويل للأمم التي يتقدم فيها أغبياؤها بالوسائط المفتعلة من مال وجاه، ويتأخر فيها أذكياؤها المضيعون...البلد الذي يحارب فيه الذكاء لا تقوم له قائمة، ولا تعلو له راية، فإنّ حق الذكاء أن يُشجع ويُدفع إلى الأمام، لا أن يُخذل ويوارى بريقه" (الغزالي 2005، صفحة 116). والخطابات السياسية العربية تكشف عن مدى سذاجتنا وجهلنا وانحطاطنا، فـ"الخطاب الثقافي السائد يسمي مكروراتِه بدائل، وإجراءاته اختبارات، وقسريته الأيديولوجية يسميها ضرورات منطقية كليانية وواجبة الوجود...". (صفدي 1990، صفحة 17) ومن ثم فلا مجال للحرية أو التّعددية الحقيقية لأنّ ذلك في عُرفنا الساذج ضد مصلحة الأمة، فـ "الطغاة يكرهون أبدا حرية الرأي، لأنّهم يعيشون في ظلال الجدران التي تسجن وراءها كرامة البشر النفسية والفكرية" (الغزالي 2005، صفحة 76).

مهما كان الواقع السياسي العربي يكتظ بالشعارات البراقة والوعود الكاذبة حول الديمقراطية والحرية وحقوق الانسان...الخ، إلا أنّ هذه المفاهيم بقيت حبرا على ورق تغص بها دفاتر الدساتير وطيات الكتب القانونية والسياسية والحقوقية، ويبقى الواقع العربي أكثر مرارة وبؤسا. وديمقراطية العرب تعني "حملة انتخابية تتطلب مالا وفيرا ودعما وجيشا وعتادا وعدة". (بوعرفة 2016، صفحة 24).

إذا كان العدل أساس الملك كما يرى ابن خلدون وهو غاية الغايات فالعرب أصبحوا أمّة الظلم والجور، كالمدن الجاهلة الجائرة التي حذّر منها الفارابي لأنّ "العدل قائم عندهم على قهر القوي للضعيف والقضاء عليه واستعباده...وإذا طُبق العدل عندهم في البيع والشراء ورد الودائع فإن الحافز عليه يكون الخوف لا حب العدالة" (الفارابي 1987 ، صفحة 29،30).

إذا كانت العقائد توجه السلوك فإنّ الواقع العربي عانى كثيرا من العقائد المتطرفة، لأنّ "الأيديولوجيات المتطرفة سواء العلمانية والإسلامية خطرا على الوطن". (بوعرفة 2016، صفحة 79)، فالعَلماني المتطرف لا يفهم من عَلمانيته إلا ظاهرها، ويعتبر النّموذج الغربي النموذج الأوحد الذي يجب نسترشد به، ودعا إلى "إحلال العقل مكان النقل في العمل والواقع، ما يؤول إلى السير في ركاب الغرب فكرا وثقافة ومعتقدا". (عبد الله 2021، صفحة 25). فنحن لم نتحرر بشكل نهائي من الهيمنة الغربية، بل

واقعون تحت سلطتها وسلطانها، و"إذا فتشنا عن أسباب التخلف والانعزال والجمود الفكري لا بد أن نعيدها إلى جملة العوامل الخارجية والتي من بينها رسوخ ثقافة القابلية للتخلف والجمود والخوف من الآخر، التي زرعها الاستدمار الفرنسي في نفوسنا والتي لا تزال آثارها إلى اليوم لصيقة بشخصيتنا وعقولنا رغم المحاولات المبذولة" (مرابطين 2016، صفحة 20) ويظهر ذلك للعيان في كل المجالات ولا أحد ينكر اليوم "سلبيات الإعلام على مجتمعنا الجزائري ودوره في تزييف الحقائق وحجبها وطمسها والترويج بالمقابل لثقافة دخيلة فكرا وخلقا، وهذا وفق ما يتناسب مع أهواء الممسكين بزمامها وإدارة برامجها فتضرب بذلك مبادئ ومقومات وحتى سيادة الدول والشعوب القومية، كما أنها أصبحت وسائلا للتدمير الأخلاقي لشبابنا وأفراد مجتمعنا الذين ما فتئوا يتخلون عن تراثهم وتاريخهم والذوابان في ثقافات الآخر" (مرابطين 2016، صفحة 25).

لقد أصرّ الحداثيون العرب إلى ضرورة تطبيق المناهج الغربية في شتى مجالات الحياة ونبذ كل موروث ديني وأجمعوا على "انتقاص الذّات وتحقيرها، وانتقاص كل مكوناتها الفكريّة والثقافيّة وغيرها وما ينبني على ذلك من احتقار مكونات الشّخصية والهويّة من اللّغة والتراث والدين... وفي مقابل تعظيم الآخر إلى مرحلة التّقديس، وعده النّموذج المحتذى الذي لا يخطئ" (عبد الله 2021، صفحة 19). وهذا سلخا للشعوب من هويتها الأصيلة ودمجها في هويّة غربية غريبة عنها، ومشاريع النّهضة لم تساهم في تنوير وتطوير المجتمعات العربيّة بل تغريبها وتخريبها لأنّ "واقع المجتمعات الإسلامية هو إلى الحداثة المقلّدة أقرب منه إلى الحداثة المبدعة...الحداثة لا تُنقل من الخارج بل تُبتكر من الداخل، إنّ ابتكار الحداثة الإسلامية الداخلية يستلزم أبطال المسلمات التي صاحبت تطبيق الغرب لروح الحداثة، وأدخلت عليه آفات تختلف باختلاف أركان هذه الروح" (طه 2006، صفحة 68).

لم نستفيد من الغرب كما استفاد سلفنا من الحضارات التي اتصلوا، فقد اختاروا منها ما يساهم في بناء حضارتهم الجديدة، أما "نحن العرب، وكل الحضارات الأخرى المنفية من خطاب المشروع الثقافي الغربي، والتي كانت ساحة لبطولاته الدونكيشوتية وفرصا ومناسبات لثوراته وحروبه، وفتوحاته العلمية، كما الاستعمارية، حاربناه نحن كذلك بدورنا لكن دون أن نكسب منه ثروة ولا استعمارا معاكسا بل فزنا منه بإعادة إنتاج عزلتنا، وسميناها استقلالا. في حين كان الغرب يُغرِبْ العالم كله، يستولي علينا عبر انبهارنا بما هو فيه، مختلف عنا...كل ذلك ودون أن نعرف فيه سر قوته الحقيقية" (صفدي، 1990، صفحة 10).

وفي المقابل فإنّ أشباه المتدنين لم يفهموا حقيقة دينهم، ووقفوا عند حدود الشّكل والقشور، يقول الشيخ الابراهيمي: "وأفكر في قومي المسلمين فأجدهم قد ورثوا من الدين قشورا بلا لباب ...ثم عمدوا على روحه فأزهقوها بالتعطيل، وإلى زواجره فأرهقوها بالتأويل، وإلى هدايته الخالصة فموهوها بالتضليل وإلى وحدته

الجامعة فمزقوها بالمذاهب والطرق والنحل والتشيع، قد نصبوا من الأموات هياكل يفتنون بها ويقتتلون حولها، ويتعادون لأجلها، وقد نسوا حاضرهم افتتانا بماضيهم وذهلوا عن أنفسهم اعتمادا على أوليهم، ولم يحفلوا بمستقبليهم لأنّهم (زعموا) الغيب، والغيب لله، وصدق الله وكذبوا فما كانت أعمال محمّد صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلّا للمستقبل، وما غرس محمّد صلى الله عليه وسلم شجرة الإسلام ليأكل هو وأصحابه، ولكن زرع الأولون ل (يجني) الآخرون" (الإبراهيمي 1997، صفحة 482، 483).

إنّ عظمة ديننا وتراثنا تقابلها سذاجتنا وسخافتنا فالعوام أصبحت "تلتصق بجزئيات الماضي حتى أصبح الماضي يُختزل في قميص وسروال، وكان علماء الكلام لا يكفرون إلّا في بعض المسائل في حين أصبح التكفير سمة عصرنا" (بوعرفة 2016، صفحة 27). وكلما تعرض الإسلام للإساءة رد المتطرفون بالقتل والتفجير ويعتقدون أنّهم يحسنون صنعا. وأصبح الفهم الخاطئ لروح الدين وفلسفته وحكمته آلة للتّدمير والتخريب "وهذا خطأ وقع فيه المسلمون، لأنّهم لم يحسنوا فهم كثير من العقائد والتعاليم على وجهها الصحيح. ألا ترى عقيدة القدر كان يجب أن تترك في كل نفس آثار الشجاعة التي لا ترهب أحدا، والضحية التي تبقي على شيء؟ لكنى الحمقى جعلوها أساسا للنّكوص والتواكل وسقوط الهمّة". (الغزالي 2005، صفحة 99). لقد صنفوا أنفسهم حماة الدين ولكنّهم في الحقيقة محامون فشلة يدافعون عن قضية عادلة. يقول المتنبي ساخرا من أهل عصره الذين كانوا أفضل من بكثير:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

أصبح التقديس الأعمى والمطلق للماضي سلطة تحدد الفكر والسلوك، فـ"القارئ العربي مؤطر بتراثه، بمعنى أنّ تراثه يحتويه احتواء يفقده استقلاله وحريته، لقد تلقى القارئ العربي، ويتلقى، تراثه منذ ميلاده ككلمات ومفاهيم، كلغة وكتفكير، كحيات وخرافات وخيال، كطريقة في التعامل مع الأشياء... كل ذلك بدون نقد بعيدا عن الروح النقدية: فهو عندما يفكر، يفكر بواسطته، ومن خلاله، فيستمد منه رؤاه واستشرافاته، مما يجعل التفكير هنا عبارة عن تذكر" (الجابري، نحن والتراث 1993، صفحة 22).

لقد انفصل الفكر عن الواقع حتى أصبح الخطاب العربي مجرد مفاهيم عقيمة فارغة من كل محتوى واقعي، ويعجز عن تقديم أبسط البدائل والحلول، فالفكر العربي المعاصر عبارة عن تيارات "تتكئ على أنموذج سلف، ماض بالنسبة للتيار الإسلامي، حاضر بالنسبة إلى الأوروبي الليبرالي اليساري. جعلت هذه الخصائص الخطاب العربي المعاصر يعبر عن وعي شقي دائم بالفارق بين الانحطاط والتقدم، وبين المثال والواقع، يعاني الأوهام... يقفز على الواقع، يلغي المكان والزمان، تطغى عليه آلية قياسية، الأمر الذي حوله إلى" خطاب

فاشل" مستلب" يعبر عن انفصال جلي بين الفكر والواقع...يبدع في إنتاج ممارسات كلامية تغيب عنها المعرفة وتهيمن عليها الإيديولوجيا وآلية التبرير كلها" (بحراوي 2016، صفحة 56).

الإسلام دين الحرية والفكر، ودين العلم والعقل، ودين التغيير، لكنّنا قوم تبع، وتبعيتنا تبعية عمياء لماضينا الذي يختلف كثيرا عن حاضرنا، أو للنّموذج الغربي المستعلي الذي تفصلنا عنه مسافات طويلة ، لقد "وجد العرب أنفسهم عند بدء يقظتهم في أوائل القرن الماضي —ولا يزال الأمر كذلك إلى اليوم–أمام نموذجين حضاريين الحضارة الأوروبية التي كانت تحديها لهم– ثقافيا وعسكريا– المهماز الذي أيقظهم وطرح مشكلة النّهضة عليهم...والحضارة العربية الإسلامية التي شكّلت ولازالت تشكل، بالنسبة إليهم السّند الذي لابد منه في عملية تأكيد الذّات لمواجهة ذلك التحدي". (الجابري 1994، صفحة 22،23). ومن نقد التراث وقع تحت هيمنة الفكر الغربي ومن نقد الفكر الغربي وقع تحت سلطة الموروث وشكل الصراع بين "التنويريين" و"الإسلاميين" تهديدا كبيرا ينخر في نحر أمّتنا المتهالكة.

لقد اغتيل العقل الحر والفكر النّقدي وصار العربي مسلوب العقل والإرادة، ف الدّجالون "من الطرق الصوفية كانوا يربون أتباعهم على التواضع بشتى الطرق المهينة...ولم يدر المغفلون أنّهم يرشحونهم أيضا ليكون عبدا للنّاس جميعا، وأنّ مثل هذا الكائن الممسوخ هو أمل المستعمرين الذين يقيمون وجودهم على إذلال الأمم وقتل الشعور بالكرامة في نفوس بنيها" (الغزالي 2005، صفحة 113). والكثير من الأئمة وعلماء الدّين يفتقرون إلى روح الفكر النقدي والمراجعات العلمية العميقة لمكنونات التراث الإسلامي الغني بأطياف من الفنون والعلوم والفلسفات الأصيلة لإنّ "طرائقهم الآن تنطوي على تنفير من دينه وإبعاده عنه" (الغزالي 2005، صفحة 108). وصار المسلمون لا يكرّسون قيم الإسلام الحقيقية بل يهدمونها، فهم "مجتمع منافق يتظاهر بتقديس الوحي واحترام صحائفه، في الوقت الذي يسير فيه على سنن من الالحاد والجهالة واللؤم...إنّ الحاكم في قصره قد يستمع إلى آيات القرآن فيهز لها رأسه تأثرا، ويُغمض عينيه تخشعا، في الوقت الذي يمضي فيه على أوراقا تحمل للناس أقبح المظالم وتوقع بهم أبشع المآثم" (الغزالي 2005، صفحة 52).

وعليه فالفكر الفاسد الجاهل بحقيقة الدين والدنيا علة تخلفنا، فقد "تفرق المسلمون وتاهوا في فقه الفروع وأعلنوا استكانة العقل من حيث تقديس ما لا ينبغي أن يقدس" (بوعرفة 2016، صفحة 27) وكم سمعنا بالمشاريع والخطابات الثّورية ولكنّها خاوية من كل برنامج ثوري. ولاحظنا الكثير من "الحداثيين العرب هزيمتهم النفسية أمام ذواتهم، سواء الجمعية، أو الذّات الفردية، فتقرأ بين سطور كتاباتهم أنّهم عالقون في المنتصف، فلا هم غربيون وإن هم آمنوا بمقولات الغربيين، ولا هم عرب مؤمنون بثقافة إسلامية أو مسلمون" (البنا 2021، صفحة 215، 216).

ورثنا تاريخا زاخرا بالإنجازات والإبداعات فقد كان المجتمع العربي الإسلامي "يموج بمظاهر العمران البشري الحافل بالنشاط والمقدرة" (الغزالي 2005، صفحة 24) لكنّنا اليوم مجتمع جاهل يموج بمظاهر التخلف والفساد لأنّ فكرنا غير مستنير ولا علاقة له التّدبر الحكيم والتّدبير البصير، فـ"هناك عوامل مدبرة، تدفع النّاس إلى الجدل الطويل في مسائل الدين الصغرى، لتصرفهم عن ملاحظة المشاكل الخطيرة التي يتعرضون في دينهم ودنيا". (الغزالي 2005، صفحة 49).

كل خطاب في أمتنا يقوم على سياسة الإقصاء إقصاء الآخر، لأنّه يزعم لنفسه الحكمة والعصمة، ويرفض الاختلاف والمغايرة ويسارع في إصدار الأحكام القاسية على غيره. فهل يدرك العرب حقيقة تخلفهم والحتميات التي أوصلتهم إلى ذلك؟

لقد انقطعنا عن ماضينا وتراثنا العظيم، واذا عدنا إليه لم نستنير بعقليته الراقية، ولا بروحه العلمية المتنورة التي شيّدت تلك الحضارة الإنسانيّة العظيمة، بل قمنا بإحياء تلك اللحظات المظلمة الحالكة في تاريخنا كالصراعات المذهبية والنّعرات الطائفية التي مزّقت وحدة الأمّة وهدّمت أركانها، فلا "نحن جدّدنا التراث ولا نحن أبقينا عليه أصيلا بل قمنا بأخطر عملية في تاريخ الفكر الإسلامي وهي قتل التراث" (بوعرفة 2016، صفحة 89)، وقد سمعنا البعض يتّهم العقل العربي الإسلامي بالانغلاق والجمود وهو الذي كان نموذجا للإبداع العالمي، فـ"الجيل الذي ظهر فيه ابن سينا، وابن الهيثم والفردوسي لتدل على أن الفترة والواقعة في أواخر القرن العاشر، وبداية القرن الحادي عشر هي التي بلغت فيها الثقافة الإسلامية ذروتها، وهي الفترة التي وصل فيها الفكر في العصور الوسطى إلى أعلى درجاته" (ديورانت دت، صفحة 183).

و في سياق آخر فإنّ باطن أرضنا غني بالثروات وظاهرها طافح بالخيرات "رزقنا الله نعم الدنيا كلها–المادية منها والروحية فلم نحسن الاستفادة منها" (مؤنس 1996 ، صفحة 194)، طاقاتنا المادية والبشرية كبيرة جدا و"العالم العربي ذو موقع جغرافي استراتيجي ممتاز، يطل على محيطين عظيمين ويشرف على ثلاث بحار لا تخفى أهميتها القصوى، والأرض العربية غنية معطاة، فيها البترول والمعادن، وفيها مساحات شاسعة صالحة للزراعة، والقوة البشرية متوفرة...الماضي القيادي، وهذه اللغة الكريمة، وهذه العبقرية التي جعلتهم يعرفون كيف يجمعون بين "المادة والروح" مما يضمن لهم الاستمرار لنهضتهم المقبلة، التي لا تنتظر سوى إفساح المجال للإمكانيات العربية الكامنة، بل لـ"المارد العربي" (الجابري، 1994، صفحة 27). ولكن واقعنا العربي تعيس شقي متخلف، ويصدق فينا قول المتنبي:

العيس في الصحراء يقتلها الظمأ والماء حول ظهورها محمول

ورثنا تراثا علميا وفلسفيا وفقهيا وأدبيا حضاريا عظيما، فلا زال كتابنا المقدس كما انزله الله على نبيه يهدي للتي هي أقوم لأنّ "الدين كله مليئا بالنصوص والأصول التي تقيم الأمم...ولا يحتاج أبناؤه إلى التسول من هنا ومن هناك". (الغزالي 2005، صفحة 110)، ولازالت سنة نبيه عليه السلام الذي لا ينطق عن الهوى تحتفظ بنقائها وطهرها و"الإسلام دين الإنسانية الخالصة، ونبي الإسلام أحق من تلجأ إليه هذه الإنسانية لتأوى في كنفه إلى الإيمان والأمان" (الغزالي 2005، صفحة 74)، ولكن العقل العربي ليس قاصرا ومقلدا فحسب بل عقلا مدمرا لكل ما هو حضاري، كالتطرف والتكفير والإرهاب...الخ.

الذّات العربية غير واعية بذاتها وما يحاك ضدها، لا تتحمل مسئوليتها، فأفرادها يعملون على تحقيق مصلحتهم الذاتية الضّيقة على حساب مصلحة الأمة، و"مجرد حديث ساذج عن قضية مثل غلاء السلع الأساسية أو الاحتكار السلعي، يجد له صدى في الشارع العربي–حتى بين المثقفين–أكثر من الحديث عن العولمة وتأثيرها على الخصوصية الثقافية والفكرية للوطن العربي، بالرغم من أن الثاني اهم وألح، لا شيء إلا لأن شعوره بالجوع يفوق شعوره بالاستلاب الثقافي" (بلام 2016، صفحة 95)

كنا نعوّل على الطاقة الشبانية لبناء أمتنا والنهوض بها، وقد خاطبها الشيخ ابن باديس قائلا:

يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب

خذ للحياة سلاحها وخذ الخطوبة ولا تهب

لكنّها أصبحت فئة منهزمة نفسيا ضعيفة فكريًا، عالة على مجتمعها تعيق نهضته وانطلاقته، تعاني البطالة والادمان على المخدرات والفساد والحرقة ...الخ و"المشاريع الإصلاحية والتحديثية لم تستطع لحد الساعة بلورة مشروع تربوي يستمد جذوره من ثقافة شعبه وينخرط في بلازما الثقافة المعاصرة انخراطا حيويا" (بوعرفة 2016، صفحة 26). لقد قطع القائد العسكري طارق بن زياد مضيق جبل طارق فاتحا لشبه الجزيرة الإيبيرية ناقلا إليها قيم الحق والخير والعدل، واليوم يقطعها "الحرّاق" هاربا من بلاده التي أصبحت بالنسبة إليه جحيما يفضل الموت خارجه بدل الحياة فيه، فمن المسؤول عن هذا الشاب ومن دفعه إلى هذا الانتحار؟

لا ننتظر معجزة تخرجنا من تخلفنا، فالسّماء لا تمطر فكرا ولا علوما ولا تكنولوجيات، والشعوب التي لا تبذل النّفس والنّفيس لترفع من شأنها لا مكانة لها في المجتمع الدولي المعاصر و "الأمّة التي تستثقل أعباء الكفاح وتتضايق من أعباء الجهاد إنما تحفر لنفسها قبرها، وتكتب على بنيها ذلا لا ينتهي أبدا الدهر" (الغزالي 2005، صفحة 09).

كل ذلك حقيقة لا يختلف فيها اثنان. لكن ما الحل؟

4. التّغيير يبدأ من الفكر أولا:

إذا أدركنا حقيقتنا كما هي، حقّقنا الخطوة الأولى للخروج من أزمتنا لإنّ "مجرد الوعي بهذه الحقيقة يمكن أن يكون الخطوة الأولى في طريق بداية بناء حضارتنا الجديدة واستعادة ريادتنا الحضارية" (النشار 2015، صفحة 12). وهذا المشروع العظيم لا تقوم به إلا ذاتا عظيمة مستنيرة واعية بذاتها وبغيرها تريد فعلا التغيير الحقيقي قال تعالى: "إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم" الرعد الآية12. إنّ الإصلاح يبدأ أولا فإذا صلح الفكر صلح المجتمع، وهو مقياس كل شيء. و "كل عمل إصلاحي لا يبدأ من تغيير الانسان هو جهد يضيع سدى ولا يُعطي ثمرته المرجوة منه وقد كان نقده للإنسان على ثلاثة مستويات: الإنسان العادي والمثقف أو المتعلم ثم فئة العلماء" (بلام 2016، صفحة 317).

كل مشروع بشري موسوم بالنقص والتقصير. ولما أكد سقراط على أن يكون رجل الدولة حكيما إنّما كان "يشير إلى ضرورة أن يكون رجل الدولة مدركا لجهله" (وجدي 2016، صفحة 145).
وعليه فلا بد من معرفة إنجازاتنا وإخفاقاتنا، وإدراك نقاط قوتنا وضعفنا، وأسباب تخلفنا وتأخرنا، والعوائق التي تحول دون تطورنا. وذلك لا يكون إلا من خلال إعمال آلية النقد الذاتي باعتبارها ضرورة فكرية وحضارية لابد منها، ولا شيء يعلو فوق آلة النقد .

إنّ سعادة الإنسان وحضارته متوقفة على جودة تفكيره، وحسن تدبره وتدبيره، فالعالم المتحضر يهتدي بنور العقل باعتباره أساس كرامة الشخص وقيمته المطلقة، و"لا يمكن أن نفهم الانتصار العقلي على مستوى التنظير فحسب، بل الانتصار العقلي إن صح من حيث الاصطلاح الفلسفي لا بد أن يقترن بالواقع والفعل، فالفعل هو الوجه الحقيقي للعقل، وأن نقد العقل هو نقد للفعل، وأن التنظير العقلي غايته الفعل أصلا" (بوعرفة 2016، صفحة 19) لأنّ الفكر باعتباره الوجود الحقيقي للإنسان غايته سعادته ورفاهيته، لأنّ" قليل من الحكمة فرحة إلى الابد " (ديورانت دت، صفحة 158).

إنّ جودة الفكر متوقفة على جودة النّقد والمساءلة، فالنقد تربية للعقل لأنّه لا كمال مع النّقد، و"ليس هناك مطلقات (يقينيات) في هذا العالم". (بوعرفة 2016، صفحة 228). إنّه شرط أساسي لبناء أي معرفة أو مشروع إنساني بناء سليما يقول الجابري: "بالمناقشة وحدها، ومن خلال الردود والاعتراضات والتوضيحات يمكننا الوصول إلى الحقيقة" (الجابري 1993، صفحة 10).

يثبت التاريخ أنّ الأمم لم تخرج من تخلفها وتدخل الحضارة الا بعد ثورات عظيمة على الفكر القديم فالفكر " اليونان الفلسفي قد ظهر حينما بدأوا ينتقدون تراثهم الشعري والأسطوري الديني الخاص" (النشار 1998، صفحة 12) والحضارة اليونانية هي ثورة اللوغوس على الميثوس، والأغارقة "أعملوا العقل في نشاط

وجرأة عجيبين فكانوا أساتذة الإنسانية" (كرم, يوسف 1936، صفحة هـ). وكان سقراط نموذجا للمفكر الناقد والمعارض للإيجابي، كان" ناقدا لأثينا ومؤسساتها الديمقراطية، لكن انتقاده للديمقراطية ومؤسساتها لا يعني أن يكون عدوا لها. بل إنّ النقد السقراطي للديمقراطي...كان نقدا ديمقراطيا لها" (وجدي 2016، صفحة 145).

والحضارة الإسلامية ثورة قلبت حياة العرب رأسا على عقب وصحّحت الكثير من العقائد والمفاهيم والقيم حتى تستقيم حياة الإنسان، وقامت على "الإسلام أولا وعلى العلم ثانيا" (منتصر 1971، صفحة 89) وقد كان الفكر الحر وآلة النّقد والتمحيص تعمل بشكل حيوي ونشيط .

أما الحضارة الأوروبية الحديثة فقامت على الفلسفة الحديثة التي كانت ثورة على فكر العصور الوسطى، إنها فلسفة عظيمة صنعت حضارة عظيمة، و"إذا كانت الديمقراطية الأمريكية تقوم على فلسفة "لوك" السياسية، فإنّ المجتمع الشيوعي يقوم على فسفة كال ماركس وإنجلز" (إمام 1990، صفحة 13).

خرجت أوروبا من ظلمات العصور الوسطى إلى أنوار الحداثة بعد ثورات اصلاحية كبرى شاملة لكل المجالات لقد "كانت نهضة حقيقتها عودة إلى الثقافة القديمة، وثورة على ما استحدث العصر الوسيط من أدب وفلسفة وفن وعلم ودين. وأساليب الحياة السياسية والاقتصادية". (كرم دت، صفحة 06،05). والثورة العلمية والصناعية فقد غيّرت المجتمعات الغربية والإنسانية جمعاء و "كل تقدم أحرزته البشرية في القرون الأخيرة إنما كان مرتبطا –بطريقة مباشرة أو غير مباشرة –بالعلم .وإذا كان من المعترف به أن وجه الحياة على هذه الأرض قد تغير خلال الأعوام المائة الأخيرة بأكثر مما تغير خلال ألوف الأعوام السابقة ،فإن الفضل الأكبر في ذلك إنما يرجع إلى المعرفة العلمية" (زكريا 1978، صفحة 10،11).

إنّ الحضارة الغربية قامت ولا زالت على منهج المساءلة النقدية، و"يمكن أن نعتبر النقد هو العلامة الفارقة للوعي الحداثي، مبدأ كل المبادئ الحداثية كالتقدم والعقلانية والتقنية والعلم وغيرها". (بلام 2016، صفحة 283). وسمة العقل الغربي الأولى هو النّقد والتفنيد، ينقد حتى ذاته، قال باشلار:"إنّ كل تقدم حقيقي في الفكر العلمي انقلابا/تحولا" (باشلار 1985، صفحة 11). والمشاريع السّياسة كما أكّد كارل بوبر–فيلسوف العقلانية النّقدية– هي "فروض يجب ان تختبر وتصحح في ضوء المناقشات والخبرات والتجارب" (وجدي 2016، صفحة 138). وهذا ما جعله العقل الغربي يحافظ على حيويته وديناميكيته، و"نقد النقد يشكل أهم خصوصية لهذا العقل الغربي، لأنه هو الذي لا يستريح لإنتاج ولا لحصيلة إنتاج. ويصعد دائما من المنتج إلى الة والواسطة والجهاز الذي فكّر وصنع وابتكر أشكال التفكير والصنع. ما ارتاح عقل الغرب إلى ذاته ولا إلى أية منظومة ثقافية أو مجتمعية أو تقنية. بل حفّزه نقد النقد دائما إلى أن يفك

عقاله من كل جهاز يحبسه...إن العقل الغربي أو هذا العقل كان يفكر حقّاً. وكان الفكر أهم من الأفكار. وكان هم الارتحال والتجوال أقوى عنده من الإرتكان والارتكاز" (صفدي 1990، صفحة 05)

فالتقييم العقلاني للذات، ومحاكمتها ومساءلتها ليست بدعة، بل سنة حضارية تمارسها كل المجتمعات المتحضرة باستمرار، من أجل التجديد والإصلاح، وإعادة رسم المعايير والمقاييس بشكل علمي. وما أحوجنا إلى "ثورة في التفكير تغيِّر من عقليتنا، وتعمل على تبديل ذهنيتنا حتى نستطيع أن نعالج مشاكلنا وفقا لما يقتضيه هذا العصر" (الفاسي دت، صفحة 10). وهذا علامة على الوعي الحداثي الحضاري.

وعليه فنحن بحاجة إلى فلسفة جديدة تنير حياتنا المتخلفة والمظلمة لإنّ "الفكر الفلسفي يمثل نقطة البدء في أي حضارة فلا حضارة بلا رؤية جديدة ومنهج جديد، وصانعو ذلك هم الفلاسفة. وإذا كانت الفلسفة تضع الحجر الأول في بناء الحضارة الجديدة فإنّ الجمود والتحجر الفكري يكون بمثابة المسمار الأول في نعش الحضارة" (النشار 2015، صفحة 37).

إنّ المجتمعات مهما كان مستواه الحضاري تراجع ذاتها باستمرار وتقيّم إنجازاتها وتعيد النظر في مشاريعها لمعرفة ذاتها ومكانتها وقيمتها بين الأمم، و"المهمة الرئيسية للفلسفة هي تحليل الواقع الاجتماعي، وتشخيص مرضه ومشكلاته وفحص الجوانب السلبية للثقافة والعلاقات الاجتماعية" (بلام 2016، صفحة 101) وهو أيضا مقياس تحضرها وتطورها، وظهور مفاهيم المابعدية دليل على ذلك.

إنّنا –إذا– بحاجة إلى ثورة نقدية تغير طريقة وتدبّرنا تدبيرنا، فالتّطور الحقيقي ثورة على الفكر القديم العقيم الذي لم يعد يستجيب للتحديات ويمثل نقد العقل المطلب الأول "لتأسيس قواعد منهجية وفكرية وسياسية لفعل النهوض، وميكانيزما حاسما في إعادة بناء الذات العربية باعتبارها ذاتا واعية لها تاريخ وقدرة على ممارسة تملك نقدي مزدوج لتراثها وللمكتسبات الحضارية للآخر" (بحراوي 2016، صفحة 58).

كل تقدم وتطور يمثل ثورة على العقليات العقيمة البالية التي صارت عائقا أمام كل نهضة و"نقد العقل جزء أساسي وأولي من كل مشروع للنّهضة. ولكن نهضتنا العربية الحديثة جرت فيها الأمور على غير هذا المجرى" (الجابري 2001، صفحة 05). لهذا وجب مراجعة الذات ومحاسبتها محاسبة دقيقة، لتحديد الأسباب الحقيقية لأزماتنا وأولها وأساسها الأزمة الفكرية التي جعلتنا أمة متخلفة. وما دام تخلفنا في كل مجال فإنّ ثورة النّقد يجب أن تشمل كل مناحي الحياة. فـ"الإنسان العربي مطالب اليوم باستيعاب هذه التحولات التاريخية الكبرى ليدخل التاريخ مرة ثانية وفق أسئلة وظيفية جديدة تهدف إلى توطين المرجعيات العقلانية والعلمية في ثقافتنا المعاصرة" (بلام 2016، صفحة 266).

لابد إذا من إعادة الوعي بالذات وإعادة فهم تراثها العظيم فهما علميا جديدا لأنّ "وعيا نقديا جديدا بالتراث يعد أولوية ملازمة لكل انفصال تاريخي عنه، ولا تكون المعاصرة ممكنة في إطار هذا المشروع إلا بإعادة بناء مقومات الذات بالصورة التي تحوّل منتوجات الحداثة إلى أفق طبيعي في سياق تطور الذات. إن قراءة التراث هنا أشبه بعملية حفر تبحث لمقومات الحداثة عن تاريخ آخر وسياق آخر مخالف لسياقها، لكنه يمتلك في نظر الباحث العناصر كلها التي يمكن أن تحوله إلى جدر آخر لها وسياق آخر من سياقاتها" (بحراوي 2016، صفحة 40).

والعودة للتراث الإسلامي ليس من أجل تقديسه والافتخار به بل للاعتبار به فهو "يوقفنا على التفكير البناء الشامخ ويغرينا بحب الحقيقة ويعلمنا مناهج كشفها، ويثير فينا روح البحث النّزيه والتفكير الدّقيق إنّه يكشف عن المحاولات التي قام بها الفلاسفة رغبة في حل الإشكالات التي عرضت لهم ويهدي إلى الإلمام بمواضع الخطأ في محاولاتهم، ومواطن القوة في تفكيرهم، ويثير في النفس النّقد الحر" (الطويل 1958، صفحة 07). فالأصولي، مُطالب بالنّقد الذاتي لمفاهيمه وعرضها على مقياس النقل والعقل، فالإسلام لم يكن "يوما مجرد لباس وهيئة، أو عبادات وفتاوى، لقد كان الإسلام كما فهمه ابن رشد وغيره من الفلاسفة مشروعا للإنسان والمجتمع يتفاعل في حركية مع الآخر الثقافي" (بوعرفة 2016، صفحة 27، 28)

كما أنّ الحداثيين الدّاعيين للانفتاح على الحضارة الغربية وضرورة الاستفادة منها، فإنّ ذلك يجب أن يمر عبر آلية النّقد والتواصل النقدي و"الدخول مع ثقافته(الآخر) التي تزداد عالمية، في حوار نقدي، وذلك بقراءتها في تاريخها وفهم مقوماتها في نسبيتها، وأيضا التعرف على أسس تقدمه والعمل على غرسها أو ما يماثها داخل ثقافتنا وفكرنا" (الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ة، بيروت، لبنان 1994، صفحة 189).

5. لا تغيير دون عقلانية نقدية: فنهضتنا متوقفة على عقلانية نقدية للذات وللآخر، لأنّ "فعل التنوير مرهون بممارسة النقد على تراث الأنا ومرجعياتها، وتراث الأخر ومنهجياته، وعلى الواقع ومشكلاته، وإلتزام الموضوعية العلمية في إصدار الأحكام...والدخول مع الآخر في حوار نقدي بناء وفق منطق المنفعة العامة" (بلام 2016، صفحة 340). لابد من القطيعة والاستقلال عن الوصاية الغربية لأنّها تحمل ثقافة استعمارية، وتحقيق الوفاق بين الدين والحداثة. وبين الأصالة والمعاصرة .

إنّ العقلانية النقدية تحتاج إلى رؤية وشجاعة عميقة تجتث الخوف والنفاق من جذوره، فالثّورة الحقيقية ثورة على كل مظاهر التخلف، من "أجل التّحرر من كل ما هو ميت متخشب في كياننا العقلي وإرثنا الثقافي، والهدف هو فسح المجال للحياة كي تستأنف فينا دورتها وتعيد فيينا زرعها" (الجابري 2001،

صفحة 08). وهذا يتطلب جهادا كبيرا وتضحيات جسام فـ"للمجد ثمنه الغالي الذي يتطوع الإنسان بدفعه، ولكن الهوان لا يعف يصاحبه من ضريبة يدفعها وهو كاره، ومن ثم فالأمّة التي تضن ببنيها في ساحة الجهاد تفقدهم أيام السلم والتي لا تقدر للحرية أبطالا يقتلون وهم سادة كرام، تقدم للعبودية رجالا يشنقون وهم سفلة لئام" (الغزالي 2005، صفحة 07).

علينا-إذا- وضع الذات تحت مجهر النّقد والمساءلة (النقد الذاتي) لتحقيق التغيير والتنوير، وأن "نبذل جهودنا لإصلاح أحوالنا في بلادنا نفسها، وتحويلها إلى ميادين للكفاح ضد الاحتلال الداخلي والخارجي جميعا" (الغزالي 2005، صفحة 43) لبناء مجتمع إسلامي حضاري كامل متكامل .

إنّ هذا المشروع الحضاري ليس ببعيد عن الذّات العربية التي قامت بالمشروع التحرري من الاستدمار الغربي بإخلاص وهمّة عالية، فقد "بدأ التنوير العربي بأفكار فردية ظهر بها جملة من المفكرين والمناضلين السياسيين ورجال الدين العرب كرفاعة الطهطاوي، محمد الطاهر بن عاشور، الشيخ محمد عبده، جمال الدين الافغاني، محمد البشير الإبراهيمي...كانت غايتهم واحدة، ودعوة واحدة من أجل تبني أفكار تحرير الشعوب العربية من الاستعمار وتحرير العقول من الجهل والخرافات على ضوء ثقافة المجتمع العربي الاسلامي. من ثمة كانت نزعتهم التنويرية مقترنة بدعوتهم إلى إصلاح العقيدة وبناء إنسان جديد باتخاذ التعليم وسيلة لتحقيق ذلك" (بلام 2016، صفحة 69). ولما أصدر الشيخ ابن باديس جريدة المنتقد 1926 فقد كانت غايته الأولى التّغيير والتّجديد الذي يُحي الأمة .

لكنّ الذّات العربية لازالت إلى يومنا مستعبدة تابعة لماضيها وخاضعة لسلطانه، أو تابعة للغرب الذي يفرض عليها نموذجه المستعلي لأنّها تفتقر إلى التفكير النّقدي ، لهذا كانت الحرية الفكرية شرطاً ضرورياً لانعتاقها، فهي مطلبا شرعيا وإنسانيا، وأكد كال بوبر أنّ وظيفة الدولة "حماية حريات الأفراد بواسطة القانون بحيث لا يكون أحد تحت رحمة الآخرين" (وجدي 2016، صفحة 209).

فالإصلاح الحقيقي هو إصلاح الفكر والمعتقد، إصلاحا جذريا ولا يكتفي بتعديلات شكلية، إصلاحات تبدأ بـ"تحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدنيا والدين وتحرير النفوس من تأليه الأهواء والرجال، وإن تحرير العقول لأساس لتحرير الأبدان، وأصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا" (الإبراهيمي 1997، صفحة 56). وكل مفكر يتزعم مشروع الإصلاح يجب أن يكون متحررا من كل سلطة تحدد تفكيره، متسلحا بعقلانية نقدية متمدنة لا شعارات وانفعالات زائفة، فالمثقفون في الأمم المتحضرة هم "خيارها وسادتها وقادتها وحراس عزها ومجدها، تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير، ويقومون هم لها بواجب القيادة والتدبير" (الإبراهيمي 1997، صفحة 126).

وإذا استنار المثقف بعقلية المؤرخ الفيلسوف والفيلسوف المؤرخ استنارت الأمة لا محال. ولنا في ابن رشد نموذج للمفكر الرّسالي، فقد كان "مفكرا يمارس عملية النقد ويشير على الزمان والمكان ويحدد المعنى بالأمر بالذات والصفات، لقد كان المتن الرّشدي محملا بالنّقد الصّريح لسياسة أنظمة الدول الإسلامية من عهد معاوية إلى المنصور" (بوعرفة 2016، صفحة 22).

فالسّياسي يجب أن يهتدي ويستنير بحكمة الفيلسوف حتى يكون ناجحا، لأنّ الأهداف والغايات يحدّدها الفلاسفة والمفكرون والمتتبع للنضال السياسي الأوروبي الحديث يلاحظ التلاحم" بين الفكر والسياسة، هذا التلاحم الذي أعطى ثماره على أرض الواقع حيث انفتح الوعي الغربي على السياسة، كما انصهر العمل السياسي في المذاهب والفلسفية والنظريات الأخلاقية والقيمية، مما جعل الفكر السياسي في القرن 19في أوروبا فكرا فلسفيا يؤمن بالموقف أولا، ثم يجنّد كل الحجج التي تعزز فكره الفلسفي، ومن ثم قامت المعارك الأيديولوجية في هذا القرن، وكانت غنية بالأفكار والحجة" (شريط 2009، صفحة 170)

إنّ الثورة الفكرية مسؤولية المفكر الأصيل صاحب الفكر المستنير والروح الوطنية التي تجعله يستجيب لمطالب أمته ، وهو "الرجل المهذب المستنير الفكر، المجوهر العقل، المستقل الفكر في الحكم على الأشياء، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق لا على اساس التخريف، المطلع على ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه، الملم بجانب معارف عصره" (الإبراهيمي 1997، صفحة 125). هذه المعارف العلمية لتراثه وللتراث العالمي تمكنه من الاستجابة لروح عصره ومجتمعه، والدّفاع عن هوية الذّات. وقد كانت جمعية العلماء المسلمين ناجحة في مشروعها الإصلاحي لأنّها بدأت بالتّربية والتعليم وأنشأت "أربعمائة مدرسة تابعة لجمعية العلماء يتمدرس فيها أكثر من خمس وسبعون ألفا من الذكور والإناث، ويزاول التدريس فيها أكثر من سبعمائة من المعلمين" (الإبراهيمي 1997، صفحة 254).

إنّ الفلسفة التي تصنع النّهضة هي الفلسفة التي تعمل على "تأسيس تربوي لا تأمل تجريدي ذلك أنّ الأصل في الفلسفة هو السؤال عن المنهج الذي يوصل الإنسان إلى تحصيل الحياة الطيبة، والتربية إجمالا، ليست إلا تنشئة الفرد على هذا المنهج الموصل إلى هذه الحياة، فيكون المشروع الفلسفي في أصله عبارة عن مشروع تربوي صريح ، لذا يتعين على الفيلسوف الذي يسعى إلى تأسيس نظرية تربوية إسلامية أن يأخذ بعين الاعتبار المهمة التربوية الأصيلة للفلسفة، فلا يغرق في التأمل المجرّد الذي يضمحل معه الواقع التربوي وإنما يتخير من الأسس ما يُمكن أن ينهض بتحويل القواعد والمعايير التي تضمنتها هذه النظرية إلى ممارسات سلوكية حية" (طه 2016، صفحة 27،28).

خاتمة: منذ أن وطأت أقدام المستدمر الغربي عالمنا العربي أصبح ضعيفا متخلفا، ومهما تعدّدت أشكال التخلف وأسبابه ودرجاته، فالنتيجة واحدة وهي أنّنا أمّة متخلفة. ولا يمكن التّحرر من أزمتنا، والبدء بمشروع النّهضة من أجل اللّحاق بركب الأمم المتحضرة إلا بمساءلة الذات ونقدها وتقييمها وتقويمها، ومعرفة الآخر حق المعرفة لنبني لأنفسنا منهجا علميا يساعدنا على تحديث أصالتنا، وتأصيل حداثتنا. ونقف من حضارة الآخر موقف الدارس المتفهم والناقد والمتعلم، لا موقف التابع المقلد.

إنّنا بحاجة إلى ثورة، بل ثورات نصحح من خلالها ذواتنا باستمرار، ونضع خطاباً فكرياً تجديدياً يخرجنا من واقعنا المتخلف، يبدأ من نقد الذّات ومحاسبتها. لمعرفة إنجازاتها وإخفاقاتها. وكل ذات التي لا تقبل النّقد ولا المساءلة فهي هالكة ولا خير فيها.

لا يجب الانفصال عن تراثنا الذي يشكل أصالتنا وفخرنا بل يجب استعادته واستعادة تلك العقلية الفذّة التي صنعت تلك الحضارة العظيمة، وليس ذلك من أجل الافتخار والتباهي به بل من أجل التفكير من خلاله في مشاكل عصرنا، أي إنتاج جدل مثمر بين الخلف الحكيم والسلف البصير، فتزداد عقليتنا نورا على نور، ولا بد أيضا من الانفتاح على الآخر المتحضر وعلومه وفلسفته ليس كمُعلم نقتفي آثاره بل كمَعلم نسترشد به .

كل ذلك يجب أن يكون بفكر نقدي وعقل ممحص ولكننا –للأسف الشديد– لحد الساعة لم نتعامل تعاملاً علميا نقديا مع واقعنا ولا مع ذاتنا وتراثنا، ولا مع تراث الآخر وفلسفته، لذلك صار لزاما علينا فتح باب العقلانية النقدية مع ذاتنا وتراثنا لفهمه من داخله، وكذلك مع الفكر العالمي–كما فعل أسلافنا من قبل– لنبني لأنفسنا منهجا علميا يساعدنا على تحررنا ونهضتنا حتى نعود إلى مجال المنافسة الحضارية من جديد .

إنّ التغيير في الحياة العلمية والفكرية والفلسفية والأدبية...الخ–باعتباره أساس كل حداثة وحضارة – سنة إنسانية حميدة لتحقيق نهضتنا كمل فعل غيرنا، لذلك فنحن مطالبون بثورة فكرية شاملة تصحح الفكر والمعتقد، وإعادة النظر في كل المجالات الحياتية إن على مستوى الضّروريات والحاجيات والتّحسينات لمعرفة حقيقة ذاتنا معرفة علمية عميقة، ومن ثم وضع الخطط والمناهج للنهوض بها

إنّ مساءلة الذات ومحاسبتها تعبير عن فكر صادق وأصيل من أجل إحياء الفكر وتجديده وتجويده، لأنّ الفكر يبلى ويتقادم ويصبح عاجزا عن مواكبة العصر ونوازله ويعيق التطور، فالنّقد أولى قواعد الإصلاح لمنظومة الفكر الإسلامي وإعادة إحياء العقل العربي حتى يستعيد نشاطه من جديد، وما ذلك على الله بعزيز.

قائمة المراجع

ابو نصر الفارابي . 1987 . *كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة.* بيروت : دار المشرق.

الحارث الفخري عبد الله . 2021. "المشروعات الحداثية لقراءة السمّة النّبويّة العدد 101." *إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر*، 13-58.

توفيق الطويل. 1958. *أسس الفلسفة.* القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

حسن وآخرون بحراوي. 2016. *محمد عابد الجابري المواءمة بين التراث والحداثة.* بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

سامية مرابطين. 2016. "الفكر الجزائري بين راهنية الظرف وتحديات العصر." *مجلة دراسات فلسفية العدد 07*، نوفمبر: 13-27.

عبد الحليم منتصر. 1971. *تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه* . القاهرة : دار المعارف.

عبد الرحمن طه . 2006. *روح الحداثة.* الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي.

عبد الرحمن طه. 2016. *من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر.* بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع.

عبد الفتاح إمام إمام . 1990. ، *مدخل إلى الفلسفة.* القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع،.

عبد الله شريط. 2009. *الفكر السياسي الحديث والمجهود الأيديولوجي في الجزائر مجلد 03.* الجزائر: منشورات السهل الجزائر العاصمة.

علال الفاسي. دت. *النقد الذاتي.* القاهرة: المطبعة العلمية.

غاستون باشلار. 1985. *فلسفة الرفض مبحث فلسفي في العقل العلمي الجديد.* ترجمة خليل أحمد خليل. عويدات: دار الحداثة.

عبد القادر بوعرفة. 2016. *العرب أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل* . بيروت: ابن النديم للنشر والتوزيع الجزائر،دار الروافد الثقافية ناشرون.

فؤاد زكريا. 1978. *التفكير العلمي* . الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

كرم, يوسف. 1936. *تاريخ الفلسفة اليونانية.* مصر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

مالك ابن نبي. 1979. *شروط النهضة،.* ترجمة كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين. قطر، وزارة الثقافة والفنون والتراث: وزارة الثقافة والفنون والتراث.

محمد البشير الإبراهيمي. 1997. *آثار البشير الإبراهيمي، ج2.* بيروت: دار الغرب الإسلامي.

محمد الصادق بلام. 2016. *العلامة محمد البشير الإبراهيمي.* الجزئر: الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية.

محمد الغزالي. 2005. *تأملات في الدين والحياة.* مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

محمد عابد الجابري. 1994. *الخطاب العربي المعاصر، ة، بيروت، لبنان* . بيروت: مركز دراسات الوحدة العربي.

محمد عابد الجابري. 2001. *تكوين العقل العربي.* بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

محمد عابد الجابري. 1993. *نحن والتراث* . الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

مصطفى النشار . 2015. *في فلسفة الحضارة* . القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

مصطفى النشار. 1998. *تاريخ الفلسفة اليونانية ج1* . القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

مطاع صفدي . 1990. *نقد العقل الغربي* . بيروت: ركز الإنماء القومي.

مؤنس حسن . 1996 .*تاريخ موجز للفكر العربي* .القاهرة : دار الرشاد.

نماء البنا. 2021. "النقد الحديثي بين المحدثين والحداثيين." *"إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 26، العدد101*، 186، 232 .

وجدي, خيري .2016 .*نظرية الديمقراطية عند كارل بوبر* .القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

ول ديورانت. دت. *قصة الحضارة، ج2، المجلد الرابع، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل للنشر والطبع والتوزيع، بيروت، دط، دت.* ترجمة محمد بدران. بيروت: دار الجيل.

ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون. 2004. *مقدمة ابن خلدون.* تحرير الدرويش تحقيق عبد الله محمد. دمشق: دار يعرب.

يوسف كرم. دت. *تاريخ الفلسفة الحديثة* . القاهرة: دار المعارف.